جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

الطفل في الوسط الاجتماعي والثقافي

بعض نماذج تنشئة طفل ما قبل المدرسة في المغرب

عبدالله ايت الخيار

الرياض

1408 هـ - 1988 م

الطفل في الوسط الاجتماعي والثقافي
بعض نماذج تنشئة طفل ما قبل المدرسة في المغرب

عبدالله آيت الخيار(*)

مما لاشك فيه أن بنيات المجتمع المغربي قد تعرضت وتتعرض حاليا لعملية تغيير وتحديث نتيجة مجموع التحولات التي شهدها المجتمع المغربي في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكدليل على عمق مسلسل التحديث هذا نجد أنه شمل مختلف البنيات والقطاعات والمؤسسات الاجتماعية بما فيها تلك المؤسسات التقليدية والتي كانت تحظى بتقدير خاص، والتي كانت تقاوم بكل صرامة كل تغيير مهما كان مصدره، ومن جملة تلك المؤسسات الصامدة والتي بدأت تنهار مقاومتها شيئا فشيئا أمام عنف التغيير ، مؤسسة الأسرة.

وبدون الدخول في معالجة مسيرة هذا التحول، وأسبابه، وتقويمه، وعلاقته بما يحدث على مستوى مؤسسات

(*) كلية علوم التربية. جامعة الرباط. المملكة المغربية

وقطاعات اجتماعية اخرى، نكتفي هنا بمحاولة رصد بعض مظاهر هذا التحول على مستوى بنية الأسرة المغربية، خصوصا أن مختلف أوجه التغيير التي تشهدها هذه المؤسسة لم تنته بعد، وبالتالي فإنها لم تستقر بعد على شكل يمكن اعتباره مكتملا.

والهدف من هذا التدخل هو محاولة طرح اشكالية دور هذه الأسرة المتحولة في التنشئة الاجتماعية والتربوية لطفل ما قبل المدرسة الابتدائية، وابعاد هذه التنشئة وعلاقتها بنموذج تنشئة آخر بدأت تمارسه مؤسسة أخرى هي روضة الأطفال.

فمن الواضح أنه نتيجة التحولات السابقة بدأت تختفي شيئا فشيئا الأسرة كمؤسسة شاملة، أي كوحدة انتاج ـ استهلاك، تحتكر كل الوظائف بما فيها من تنشئة وتعليم وتمريض وانتاج واستهلاك وتشغيل.. إلخ، وبدأت تتخلى عن جل أوكل تلك الوظائف لفائدة مؤسسات أخرى مختصة، إما عمومية أو حرة[1] وهكذا نجد أن هناك منافسة المؤسسات المستحدثة لمؤسسة الأسرة التقليدية والأصيلة

ونظرا لتخصص المؤسسات المستحدثة وفعالية أساليب ومناهج عملها، وانبهار الناس بها فان الأسرة لم تملك سوى

---

١ ـ تطور العائلة المغربية المعاصرة. الدكتورة فاطمة المرنيسي. مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية. جامعة محمد الخامس. العدد (٣، ٤) ١٩٧٨م. الرباط.

التراجع والاكتفاء بنوع من التنشئة الأولية تباشرها على أطفالها، في فترة ما قبل المدرسة وحتى بالنسبة لهذا الحيز الذي تحتفظ فيه الأسرة بحق المبادرة والاشراف التربوي، نجد أن نمط التنشئة والتربية الممارس يرتبط الى حد بعيد بنمط الأسرة وبنيتها وموقعها في سلم التحديث.

فبسبب انتماء الطفل المبكر للأسرة تملك هذه الأخيرة التأثير عليه، لذلك سنفترض أن نمط الأسرة يحدد الى حد بعيد نمط التنشئة الاجتماعية في الطفولة الأولى.

وسنحاول أن نتساءل عن ماهية الأنماط الأسرية التي فرزها مسلسل التحديث حتى الآن؟ وهل بالامكان الحديث عن نمط أسري مهيمن، في مقابل أنماط أخرى ثانوية أخذت تتقلص بالتدريج، وسنحاول الاعتماد هنا على تصنيف أفقي، بدل التصنيف العمودي الذي يستند على مبدأ الأصل الاجتماعي الطبقي والدور الاقتصادي.

استرشاداً بالمبادىء السابقة نجد أن مسلسل التغيير الذي عاشته الأسرة، لم ينتج نمطا أو بنية أسرية منسجمة ومتوافقة، بل بنى أسرية يغلب على بعضها طابع التفتح ونبذ

التقاليد وعلى بعض آخر الميل نحو المحافظة ورفض المعايير الجديدة، أو بنى يتعايش الاتجاهان معا داخل نفس النمط[1].

وفيما يلي بيان خصائص كل من تلك البنايات الأسرية:

البنية الأولى: أو الأسرة الممتدة وهي تقليدية محافظة على مستوى القيم، وواسعة من حيث الامتداد لأنها تشمل أفراد العائلة والأقارب، كما يوجد نوع من التضامن المادي والمعنوي والمساندة والغيرة بين أفرادها[2].

البنية الثانية: أو الأسرة المتحولة، وهي التي نالت حظا من التغير ولكنه لم يكن شاملا ومتوافقا، فالتغير قد يصيب البنية الانتاجية لكن تكون هناك استمرارية الاسترشاد بالقيم التقليدية، ومعايير السلوك المحافظة، كما أن التغيير قد يصيب بنية القيم والمعايير مثلا تبنى قيم عصرية وعلاقات مستحدثة

---

١ ـ السلطة الأبوية والشباب. الدكتور زهير حطب، والدكتور عباس مكي. معهد الانماء العربي. ص: ٥٣.

٢ ـ يبلغ عدد العائلات المغربية حسب احصاء عام ١٩٨٢ الميلادي ٣,٤٣٢.٣٥٨ أي بارتفاع إجمالي قدره ٦٨٢,٣٨٧ أسرة في مدى ١٠ سنوات، وتستقر نسبة ٥٣,٦٪ من مجموع الأسر في الوسط القروي والباقي في الوسط الحضري، وحجم متوسط الأسر هو ٥,٩ شخص.

ولكن على المستوى الانتاجي المادي (الاقتصادي والاجتماعي) تبقى الأسرة قانعة بأساليب تقليدية ومحدودة الانتاج.

البنية النووية: وهي الأسرة التي أصاب التحول مختلف البنيات المكونة لها فكان شموليا (أي بنية القيم وبنية الانتاج المادي) مما يؤدي الى استقلالها الذاتي، سكنا، ومعيشة، كما أنها تتبنى بالتدريج تصورات جديدة عن الأسرة والزواج والأطفال وبالتالي تتقلص تأثيرات الأقارب والآخرين في شئونها الداخلية[1]

تحاول اذن هذه النمذجة أن تضع تصنيفا للأسر المغربية حسب مقدار استيعابها، وتمثلها للتغيرات والتحولات الحادثة في محيطاتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وما دام كل نمط يتأثر ببيئته الايكولوجية والجغرافية فإننا نستطيع القول بأن النمط الأول الممتد يتواجد أكثر في البوادي والأرياف في حين يتواجد النمط الثاني المتحول في الحواضر ومحيطات المدن الكبرى، بينما ينحصر وجود النمط الثالث النووي في مراكز المدن العصرية، وهذا هو الذي يسمح لنا بافتراض بداية

---

١ ـ تفيد المعطيات الاحصائية الأخيرة أن هناك تقلصا في نسبة الأسر الصغيرة الحجم (من فرد الى ٣) لفائدة الأسر الكبيرة، بحيث لا تتعدى نسبة هذه الأسر النووية ٣١٪ من الأسر القاطنة بالحاضرة.

هيمنة وتوسع النمط الثاني، وذلك على حساب النمطين الآخرين، فما أساليب تنشئة طفل ما قبل المدرسة حسب الأنماط الأسرية السابقة، وهل تتعدد حسب تعدد تلك الأنماط؟ أم أن هناك نموذجا واحدا للتنشئة التربوية الاجتماعية؟

إننا سنميز بين نموذج تربوي تقليدي صرف يمارس في اطار النمط الأسري الأول: أي الممتد وبين نموذج تربوي متحول يمارس في النمط الأسري المتحول، أما النمط الثالث وهو النووي فلن نهتم به هنا، نظرا لأن نموذجه يكاد يكون تقليدا حرفيا للنموذج الغربي اضف الى ذلك أنه لا يمثل الا نسبة ضعيفة من الأسر المغربية.

وسنحاول فيما يلي تحليل بعض ميكانيزمات هذه التنشئة التربوية الاجتماعية والعلاقات والتفاعلات التي تجري بين الطفل، ووالديه، في اطار النمطين الأسريين السابقين أي الممتد والمتحول على اعتبار انهما النمطان السائدان في المجتمع المغربي من الناحية الاحصائية.

١ ـ التنشئة التربوية التقليدية في اطار النمط الأسري الممتد (التقليدي):

استنادا وتدعيما لبعض الدراسات المغربية في الموضوع[1] نعتبر بأن التنشئة الاجتماعية والسيكولوجية للطفل المغربي (٠ ـ ٣) في النمط الأسري التقليدي تمتاز بتوازنها وايجابيتها، وانسجامها، وتوافقها، مع متطلبات النمو السيكولوجي العاطفي، والاجتماعي لهذه المرحلة، ويعود السبب في ذلك الى الاتصال الكثيف للطفل بأمه (اتصال عضوي جسدي وانفعالي ـ عاطفي وذهني قوي، بل أيضا قد يبلغ هذا الاتصال حتى مستويات اللاوعي فيكون هناك توحيد لا شعوري بين لا شعور الطفل ولا شعور الأم) الا أن هذا الطفل لن يلبث ان يخرج من دائرة احضان الأم، وذلك باكتسابه للمشي، ومحاولاته الأولى للتعامل بالرموز، وسيكون ذلك بداية ظهور ما

---

1 Abdelwahdl Radi: Processus de Socialisation de l'éufant marocain, in Etudes philosophiques et litteraires, p. 37, No. 4, 1969, RABAT.
وانظر أيضا: محمد جسوس. تأثير التطورات العائلية على الطفل المغربي. نشر في كتاب اصدرته رئاسة جامعة محمد الخامس، عن أعمال ندوة الطفل والتربية والتغير الاجتماعي. الرباط: يونيو ١٩٧٩م.

ندعوه بأزمة الاتصال، التي ستنتهي الى انفصال الطفل عن أمه وبروز دور الأب، إن المقصود هنا ليس الأب العضوي فقط، بل الأبوة كثقافة وكخطاب موجه للطفل، بما يحمله ذلك من تشخيص للقوة وقدرة على فرض النظام واحترام معايير معينة في السلوك.

وبما أن كل ثقافة هي سلطة فان ثقافة الأب ترمي الى ترسيخ سلطة العيش الأخلاقي والاجتماعي، واعادة انتاجه، استنادا على أن الطفل هو راشد صغير (الحرمان في الطفولة) وتعتمد العملية ككل على مبدأ الفرض (الاجبار) بما يحمله من تعسف أي عدم اتاحة الفرصة للطفل لاستدخال القيم والمعايير من تلقاء نفسه، وباختصار ان التحرر من الأم «المفروض» يؤدي بالطفل الى تقمص شخصية الأب كتعويض عما فقده وهذا التوحد بالأب سيؤدي به الى تنمية أناه الأعلى، وبالتالي تنمية «الاجتماعي» لديه على حساب «الطبيعي».

وتتواصل عملية التطبيع الاجتماعي للطفل في النمط الأسري الممتد حينما يبلغ سن الخامسة بمساعدة الفقيه في «الكتاب» الذي يكلف ليس فقط بتكوين الطفل، ولكن ايضا بتربيته وفق النموذج الاخلاقي والمعرفي، بحيث يرسخ لديه تصور الجماعة للطبيعة والانسان والمجتمع، وما ان يبلغ الطفل ٧ سنوات في العالم القروي دائما حتى تبدأ عملية ادماجه في

عملية الانتاج، وتحسيسه بعملية تقسيم العمل المتبعة في الجماعة، وهكذا توكل عملية تكوينه المهني «لمعلم»[1] أو يساعد الأب في عمله. وتمتاز عملية التطبيع في هذه المرحلة باستعمالها لسلطة الراشد وتصل قساوتها لدرجة استعمال الزجر والعقاب البدني.

المهم أنه بقدر ما تكون عملية التنشئة التربوية التي تمارس في اطار هذا النمط الأسري متوازنة، ومتوافقة في السنوات الثلاث الأولى من حياة الطفل نتيجة الحضور المكثف للأم في حياة طفلها بقدر ما يسبب غياب هذا الحضور ازمة في ذلك التوازن، تبتدىء بتذبذب الطفل بين السلطة الوجدانية للأم، والسلطة المعرفية للأب، وتنتهي بالاختيار المفروض وهو التوحد بالأب وتبني سلطته كقدر لا مفر منه.

٢ ـ التنشئة الاجتماعية ـ التربوية في اطار النمط الأسري المتحول:

سبقت الاشارة الى أن هذا النمط الأسري يتواجد في الغالب في الحواضر، ومحيطات المدن، وهو نمط متحول من

---

١ ـ معلم (تسكين الميم) : تطلق في الوسط المغربي التقليدي على الراشد الذي يتولى تلقين الأطفال (المتعلمين) الحرف اليدوية أو بعض الأشغال المتعلقة بالصناعات التقليدية.

حيث انه لا يزال يعيش تحولات لم تنته به الى وضع مكتمل، لذلك يتعايش داخله نظامان مختلفان، إما أن يكون هناك تحول في المجال الانتاجي الاقتصادي واستمرارية المحافظة على القيم التقليدية، أو تغيير في القيم ومعايير السلوك مع المحافظة على استمرارية النماذج الانتاجية الاقتصادية الموروثة، ومن شأن هذا التعايش بين النظامين أن يؤدي الى ازدواجية التنشئة الاجتماعية التربوية، بحيث يكون هناك ميل لترسيخ وانتاج القيم الحديثة المرتبطة بالحضارة العصرية، والمبنية على منطق الفعالية والانتاجية، وميل آخر نحو المحافظة على بعض القيم التقليدية الفعالة، والتي لن تخل بشكل مباشر بالقيم الحديثة.

وإذا حاولنا أن نناقش موضوع التنشئة في هذه الأسر انطلاقا من الافتراض الذي نعتبره أكثر اجرائية، وهو مبدأ الاتصال والانفصال، فإننا سنجد أن مستوى كثافة اتصال الطفل بأمه يبقى دون كثافة اتصال الطفل بأمه في الأسر الممتدة والتقليدية

إن سيرورة التصنيع وتحديث المجتمع المغربي، ودخول المرأة عالم الشغل سيؤدي بالأم الى الانفصال عن طفلها لفائدة اما الخادمات وهذا ربما يستدعي الحديث عن تأثيرات «ثقافة» الخادمات في تربية الطفل، واما لفائدة مؤسسات تربوية مختصة

هي اما بيوت الأطفال Creche في المرحلة الأولى، أو حضانة الأطفال والروضة فيما بعد.

إن انفصال الطفل هنا عن أمه لن يؤدي به الى الارتماء في أحضان سلطة الأب وثقافة الرجل بصفة عامة، بل سيكون البديل هو الروضة بما تبثه من «ثقافة» مؤسسية تستند ـ وهذا من ايجابياتها ـ على معطيات سيكولوجية التعلم ومحاولة تحقيق متطلبات علم نفس النمو والمراحل وبدون الدخول في جدال حول مدى صلاحية أو عدم صلاحية هذه المعرفة العلمية السيكولوجية، التي انتجت في الغرب (مسألة المراحل مثلا) ومدى تطابقها مع خصوصيات الطفل المغربي وطبيعة نموه الوجداني، والذهني، والاجتماعي، فإننا سنثير مسألة تتعلق بفكرة الهدف من تأسيس رياض للأطفال. فما الهدف.؟

في نظري. أن الهدف يتجاوز مسألة حراسة الطفل أثناء غياب الأم من أجل الشغل، ليصبح هدفا ذا طبيعة سوسيولوجية وسيكولوجية تسعى الى تحقيق المساواة وتكافؤ الفرص بين الأطفال وتوحيد مداركهم وقاموسهم اللغوي، وذلك تمهيدا لمرحلة التعليم المدرسي.

فمن المعروف أن الأصل الاجتماعي الثقافي للأسرة يتم نقله الى الأطفال بكيفية مباشرة، ومعلوم ايضا ان الأسر تختلف

فيما بينها فيما يخص مثلا نظام استعمالها للغة وبالتالي فالطفل تبعا لمستوى اسرته اما أن يرث نظاما واسعا من الترميز[1] (مفردات دقيقة ـ استخدام الصفات والمصادر ـ وكلمات الوصل والفصل) واما أن يرث نظاما محدودا في الترميز وبالتالي يبقى تعامله اللغوي سجين جمل جاهزة وصفية تتكرر باستمرار واذا علمنا الأهمية التي تكتسبها اللغة في التحصيل والتفوق المدرسيين بحيث اما ان تكون حافزا أو عائقا أدركنا أهمية الروضة كوسيلة لضمان تحصيل لغوي موحد لدى الأطفال[2] وذلك بتقريب أنظمة الترميز بينهما ما دامت المشرفة التربوية في الروضة تخاطب الأطفال جماعة وتستعمل في ذلك نفس نظام الترميز، والقصد هو تمرين الطفل على لغة وسيطة بين لغة الأم العفوية ولغة المدرسة المقننة.

ومادام النمط الأسري المتحول الذي نحن بصدده الآن، مقتنعاً بأهمية الرياض، وبالتالي يوكل أمر التربية النهارية

---

1 B. Bernstein: Langage et classes socioles: Codes socio-linguistiques et contrôle social, Ed. Je Minuite, 1975, Paris.

2 - B. Zazzo: Un grand passage de l'école maternelle à l'école primaire, P.U.F., 1978, Paris.

لأطفاله لهذه المؤسسات، فإننا سنحاول تحليل بعض ميكانيزمات التنشئة الاجتماعية ـ التربوية في مؤسسات رياض الأطفال.

وسنلاحظ في البداية أنه اذا كان هناك تضخيم لدور الطفل في اطار التربية التقليدية، (الراشد الصغير) التي تمارس في الأسر الممتدة السابقة الاشارة اليها، فان هذا التضخيم سوف يستبدل في حالة الروضة بما يمكن تسميته بالتحقيب، اذن ـ بدلا من النظر الى الطفل من خلال الغاية منه اي الرشد، سيكون الأمر هنا مختلفا اي النظر الى الطفل كواقع الآن على اعتبار ان نموه يتم مس خلال مراحل متعددة وتتضمن كل مرحلة بنيات سيكولوجية وذهنية وعضوية خاصة ثم محاولة الحرص على تلبية متطلبات هذا النمو المتدرج عبر بنيات خاصة من جميع الجوانب الجسمية الحسية الحركية، والوجدانية ـ الانفعالية والذهنية والاجتماعية، ولذلك يخدم الروضة كمؤسسة أهداف التربية الحديثة التي تدعو الى جعل الطفل محور العملية التربوية وجعل المربين يدورون في فلك المربي.

وينتج عن هذه الثورة الكوبرنيكية التي تحاول الروضة مباشرتها:

١ ـ تقليص لائحة المنع والطابو مع الاحتفاظ بتعليم الأطفال القبول والامتثال لبعض القواعد المؤسسية البسيطة.

٢ ـ دمج الطفل في مجتمع جديد وهو «مجتمع الأطفال» ومن الواضح ان اجتماع الأطفال مع بعضهم يؤدي الى تكوين جماعة وهي شعور جمعي يختلف عن مجرد شعور طفل منعزل عن الآخرين، ويؤدي ذلك الى افتراض وجود مجتمع متوازٍ أو ثقافة فرعية موازية لثقافة الكبار وهو أمر يتيح للأطفال السلوك طبق لا شعور جمعي خاص بهم الى حد ما.

٣ ـ بدلا من فرض قيم ومعايير السلوك بشكل تعسفي على الأطفال، وهم غير مؤهلين بعد نفسيا ومرحليا لذلك، نجد هنا محاولة حث الأطفال على استخدام القيم وتبني المعايير التي تتناسب مع حالتهم الوجدانية والذهنية والاجتماعية الراهنة، وبالتالي تصبح تلك القيم المقدمة للطفل في الروضة مرادفة لمصطلحات الاهتمام Intérer والتفضيل Préféreuce والالزام المعنوي Obligation morale والانجذاب Attraction أي أنها ستصبح تلبي حاجات يشعر بها الطفل من تلقاء ذاته، وبالتالي فعملية التنشئة الاجتماعية التربوية ستكون قاعدية من حيث أنها تنطلق من الميول الخاصة للطفل، وحاجاته، بغية اشباعها وترضيتها.

٤ ـ وجود منظومة مرجعية معرفية تعود الى معطيات العلوم السيكولوجية بصفة عامة، وعلى الخصوص معطيات علم نفس النمو والمراحل، فمثلا بالنسبة للمرحلة التي تهمنا هنا وهي الطفولة المبكرة يمكن تقسيمها بدورها الى مراحل اخرى كالمرحلة الحسية الحركية (٠ ـ سنتين) والمرحلة الحدسية (٢ ـ ٦ سنوات). إلخ، ويفترض أن الروضة ستقوم بتلبية متطلبات نمو الطفل حسب خصوصية كل مرحلة وذلك بتحفيز الطفل على التعبير عن حاجاته، ومشاعره، واهتماماته، ثم مساعدته على اشباعها، وكذلك اغناء بيئته الخارجية لكي يتفاعل معها ويتمثلها، وتأتي أهمية التنشئة الاجتماعية ـ التربوية التي تسترشد بمعطيات العلوم السيكولوجية السابقة من أنها تستند على معرفة علمية وهي بذلك تمتاز من الناحية الابستمولوجية عن نمط التنشئة الاجتماعية التقليدية التي تمارس في الأسر الممتدة والتي تكتفي بالاسترشاد بمنظومة مرجعية تعتمد فقط على صورة الطفل في المجتمع مع ما يكتنف تلك الصورة من غموض وتعسف واحتقار للطفل، والمرأة، وسلطوية تنبني فقط على الرغبة الملحة في ادماج الطفل في حياة الجماعة دون الاهتمام بخصوصية الطفولة في حد ذاتها (التطبيع الاجتماعي للطفل).

وأخيراً. اذا كان دور رياض الأطفال في العملية

التربوية ايجابيا، من الناحية النظرية كما ورد ذلك في العرض، من حيث حرصه على ضمان تنشئة متوازنة عاطفيا، وذهنيا، واجتماعيا، فان ذلك سيؤدي بنا الى طرح السؤال التالي:

ما واقع التنشئة النفسي ـ الاجتماعي بمؤسساتنا لرياض الأطفال؟؟ لأن هناك دائما نمطين أحدهما هو النمط المبني أو النظري Modèle coustruit أي المتصور انطلاقا مس الملاحظات والتحليل الدقيق، وهناك من جهة اخرى النمط المعاش Modil recu ، أي الواقعي والفعلي، فما مدى مطابقة النمط المعاش للنمط النظري؟ وما مدى مطابقة النمط المعاش لمعطيات النمو النفسي ـ الاجتماعي ومتطلبات هذا الأخير لدى الطفل ؟

وأعتقد أن هذا السؤال لن يجيب عنه الا المعني بالأمر مباشرة، أي الأخوات المؤطرات داخل رياض الأطفال، بحكم احتكاكهن المباشر بالطفل، وسهرهن على رعايته النفسيةوالاجتماعية، فهل تطبق المربيات بالرياض برنامجا محدداً؟ هل هناك اهتمام بالمطالب الفردية لكل طفل على حدة. أم أن التعامل مع الأطفال يكون كجماعة؟ هل يتم تصنيف الأطفال حسب السن، أم يكون هناك دمج لأعمار متفاوتة في فئة واحدة؟ ماالمهارات الحسية ـ الحركية التي يتم التركيز عليها؟

وكيف تتم مساعدة الطفل على اكتساب المهارات اللغوية؟ ماللغة المستعملة في مخاطبة الطفل، وما علاقتها بلغة الأم من جهة، ولغة المدرسة من جهة أخرى؟ وكيف تختار المربية بعض القصص والحكايات من أدب الأطفال لترويها لصغارها؟ وما مضمون تلك الحكايات وما نموذج التنشئة الاجتماعية المتضمن فيها؟ وما موقع اللعب في عملية التنشئة التربوية في الروضة؟ هل يتم التركيز على دوره في النمو الاجتماعي (احترام قواعد اللعب واحترام الآخرين) أم يتم التركيز فقط على اللعب التركيبي والابداعي؟ وما الأساليب المستعملة في انضباط الأطفال وكيف تتم معالجة ظاهرة الطفل، الأطفال ـ المشكلة أو الشواذ أو العباقرة الذين يتجاوز عمرهم العقلي عمرهم الزمني؟ وكيف يتم التنسيق مع الأسرة في العملية التربوية ككل؟

إن من شأن طرح مجموع هذه الأسئلة للنقاش أن تُسلط الأضواء الكافية على السؤال المركزي الذي طرحناه آنفا وهو: «ما مدى مطابقة النمط المعاش للنمط النظري والمتوخى. ؟

وأعتقد أنه حتى في الحالة التي سنجد فيها أجوبتكن على تلك الأسئلة إيجابية: بمعنى أن تنشئتكن للطفل تكون وفق

المخطط النظري السابق أي التعامل مع الطفل برفق ومحاولة تعويض عطف الأم الغائبة والتخلي عن السلطوية، والفرض والاجبار والعادات السيئة للراشدين واحترام مخطط النمو المرحلي للطفل وتلبية متطلباته بالتدريج وعدم اجباره على تبني قيم لا تتناسب مع متطلبات عمره الزمني والسيكولوجي، أقول حتى في هذه الحالة الايجابية سيطرح سؤال آخر: الى أي حد تقوم الأسرة بتعزيز العادات السلوكية التي اكتسبها الطفل في الروضة؟ هل تستمر الأسرة في تشجيع الطفل على اتخاذ المبادرات الايجابية، أم أنها تطفىء فيه تلك العادات المكتسبة؟

وهنا. يكمن جوهر أزمة التنشئة الاجتماعية ـ التربوية للطفل المغربي قبل المدرسة، لأن هذا الطفل يعيش في اطار نمط أسري متحول، كما سبقت الاشارة، وهو نمط لم يستقر بعد على شكل محدد وبالتالي يتعايش داخله نمطان أو أكثر لتصور الحياة، والوجود، والأسرة، والتربية، والقيم، والمعايير، مما ينعكس بشكل سلبي على الطفل، بحيث تكون شخصيته مركبة تتصارع فيها القيم والمعايير، التي تبثها فيه اسرته المركبة القيم بدورها وينتج عن كل ذلك نتائج سلبية كالميل للانحراف والعدوان، والكذب والنفاق، وفي أحيان أخرى الى نتائج مرضية كفصام الشخصية أو النزوع نحو الرفض وتخريب كل تلك القيم المتناقضة والمتعايشة.

وتزداد حدة المشكل بالنسبة للطفل الذي يذهب الى الروضة فيكتسب عادات ايجابية وملائمة لمستوى نموه ـ كما أسلفت ـ ولكنه حينما يعود الى البيت في المساء سيجد بيئة اخرى مخالفة تماما، بحيث تطفى- فيه الأسرة تلك العادات المكتسبة (العودة مثلا الى الفرض والسلطوية والاجبار) فيشعر الطفل بتعدد القيم المعروضة عليه، أو المفروضة عليه، وتنافرها، وعدم تجانسها، وسيؤدي به ذلك مستقبلا في مرحلة الرشد والمراهقة الى التشكك في كل تلك القيم والشك ايضا في المجتمع ككل فينتهي الى الانحراف والعدوان.

إن كل الجهود التي تبذلها الروضة في سبيل ضمان تنشئة سيكولوجية سليمة للطفل سوف تصطدم اذن بواقع الأسرة المريض، ولذلك نطرح في النهاية السؤال التالي:

الى أي حد يمكن اعادة تربية المربي (الأسرة) وتشخيص أعراضه؟ والى أي حد يمكن للروضة أن تنتقل من مستوى تربية الطفل الى إعادة تربية أسرته؟ وهل تملك بعض الوسائل الفعالة في هذا الاتجاه؟